دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الغرور والكبر في ضوء القرآن الكريم
المؤلف الرئيسي:	إبراهيم، منال ميرغني محمد
مؤلفين آخرين:	الحسن، فوزية أحمد(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2009
موقع:	أم درمان
الصفحات:	1 - 266
رقم MD:	562146
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة أم درمان الاسلامية
الكلية:	كلية أصول الدين
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الغرور في القرآن، التكبر في القرآن، الوعظ والارشاد
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/562146

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفصل الثالث
نتائج وعواقب الغُرور والكِبْر

وبه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الكفر والجحود بآيات الله تعالى.

المبحث الثاني: آثار الغرور والكبر وعواقبه.

المبحث الثالث: الهلاك والعذاب.

المبحث الأول
الكفر والجحود بآيات اللّه تعالى

وبـه مطلبان:

المطلب الأول : التكبر على الله عزّ وجلّ.

المطلب الثاني: الاستكبار عما جاء به الرسل.

المطلب الأول
التكبـر على الله عزّ وجل

التكبر على الله عزّ وجلّ هو أفحش أنواع الكبر وسببه الجهل المحض مع تشبع النفس بالطغيان.

وهو أفظع أنواع الكبر وأخبثها، ومن أمثلة ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم من القصص في الاستكبار على الله عزّ جلّ استكبار فرعون، فهو قمة الطغيان في عصره وشر متكبر على شعبه فقد وصل أمره إلى ما ذكره الله تعالى في كتابه بقوله ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1]، أي جمع السحرة ونادى فيهم. في الآية يقول ابن عباس: كلمته الأولى ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[2] والآخرة (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ).

فالرجل كان دهرياً[3] منكراً للصانع والحشر والنشر، وكان يقول ليس لأحد عليكم أمر ولا نهي إلا لي، فأنا ربكم بمعنى مربيكم والمحسن إليكم وليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمر ونهي أو يبعث إليكم رسولا[4].

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾[5] أي انتقم منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾[6][7].

---

(١) سورة النازعات، الآية (٢٣-٢٤).

(٢) سورة القصص، الآيتان (٣٨).

(٣) الدهرية: فرقة الحادية تنفي البعث والحساب والجنة والنار، وأن نهاية الإنسان هي موته وهي قريبة من فكرة الشيوعية الدينية قد ولد هذا المذهب عند مشركي العرب، انظر معجم ألفاظ العقيدة، تصنيف أبوعبدالله فالح، تقديم فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٢(١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، ص ١٨٥.

(٤) تفسير الرازي ٤٣/٣١/١٦.

(٥) سورة النازعات، الآية (٢٥)

(٦) سورة هود، الآية (٩٩).

(٧) تفسير القرآن العظيم١٣٩٥/٢.

وهذا النوع من الكبر ما يستحقه صاحب هو العذاب الأليم، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1] أي صاغرين حقيرين، كما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر[2] في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصِّغار[3]، حتى يدخلوا سجناً يقال له بولس، تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخيال عصارة أهل النار)[4][5].

وإلى هذا القول ذهب الطبري في تفسيره[6].

يقول صاحب الظلال: (فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم وهذه نهاية الكبر الذي تنتفخ به قلوب وصدور في هذه الحياة وتنسى ضخامة خلق الله، فضلاً على نسيانها عظمة الله ونسيانها للآخرة وهي آتية لا ريب فيها، ونسيانها للموقف الذليل في الآخرة بعد النفخة والاستكبار)[7].

والقرآن الكريم أولى هذه الظاهرة – ظاهرة الاستكبار بالله وعبادته – من ظواهر الكبر عناية عظيمة ووجه لها اهتماماً كبيراً ومبلغ ذلك واضح عند الكلام على الذين استكبروا فكفروا، واستنكفوا عن عبادة ربهم قال تعالى ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ

---

(١) سورة غافر، الآية (٦٠).

(٢) الذَّر: صغار النمل والنسل. وما يرى في شعاع الشمس الداخل من النافذة، انظر المعجم الوسيط، ص٣١٠.

(٣) الصِّغار: صغار صغاراً: رضي بالذل والضعة فهو صاغر، وصغّر: حقره وأذله، المعظم الوسيط، ص٥١٥.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم ٦٦٨٩، ١٧٨/٢، وابن الجوزي في كتاب الترغيب والترهيب، تصنيف الإمام الحافظ أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الجوزي الأصبهاني، اعتنى به أيمن بن صالح بن شعبان، ط١(١٤١٤هـ-١٩٩٣م)، دار الحديث، القاهرة، باب في الترهيب من الكبر، حديث رقم ٦٢٦، ٣٦٥/١.

(٥) تفسير القرآن العظيم١١٦٦/٢.

(٦) جامع البيان ٧٩/٢٤/١٢.

(٧) في ظلال القرآن٣٩٠/٥.

ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾(١).

(لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ) أي لن يأنف أن يكون عبداً لله، أي من أن يكون، فهو موضع نصب، (وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ) أي من رحمة الله ورضاه، (وَمَن يَسۡتَنكِفۡ) أي يأنف عن عبادته ويستكبر ، فلا يفعلها (فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ) أي إلى المحشر جميعاً فيجازي كلاً بما يستحق كما وضحه في الآية ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾(٢). وأصل يستنكف نكف، أي لن يمتنع المسيح ولن يتنزه من العبودية ولن ينقطع عنها أو يصيبها(٣).

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) فيعطيهم ثواب أعمالهم ويزيدهم من فضله أي ويعطيهم زيادة على ذلك من إحسانه وسعة رحمته وامتنانه، (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا)، وقد فصّل حال المتكبرين على عبادته، وحال العابدين مع أن المذكور أحد الفريقين يدل على ذكر الثاني، وأن ذكر الإحسان إلى النوع الثاني مما يفهم فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم فكأنه قيل: ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيعذب عذابين بالحسرة إذا رأى أجور العاملين وبما يصيبه من عذاب(٤).

من توجيه الآية:

---

(١) سورة النساء، الآية (١٧٣).

(٢) سورة النساء، الآية (١٧٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٣/٦/٢٦.

(٤) الأساس في التفسير ٢/١٢٥١-١٢٥٢.

بيان المعتقد الحق في عيسى عليه السلام، وحرمة الاستنكاف عن الحق والاستكبار عن قبوله، وبيان الجزاء الآخروي وهو إما نعيم وإما جحيم[1].

هذه النصوص القرآنية توضح ما لداء الكبر من تأثير قد يبلغ بصاحبه إلى مستوى التكذيب بآيات الله وهي حق، والاستكبار عن اتباع ما جاء فيها من أوامر ونواه والاستنكاف عن عبادة الله.

ووضحت الآيات إن الأبرار الكاملين من عباده لا يستنكفون عن عبادته والخضوع له، فالمسيح لن يستنكف عن أن يكون عبداً لله، وكذلك الملائكة المقربون لا يستنكفون عن عبادته والخضوع له، ثم أبان الله عاقبة المستكبرين عن الإيمان وعن عبادته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون لا يدخلون الجنة ولهم من جهنم مكان معد لهم ممهد لعذابهم. قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

وقوله أيضاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[3].

(وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ) أي كذبوا بآيات الله التي جاءت الرسل بها وقصتها عليهم واستكبروا عن العمل بها كما استكبروا عن الإيمان فأولئك البعداء من كل خير (أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ) أي أهلها، هم فيها خالدون لا يخرجون منها بحال من الأحوال، والتكذيب كالاستكبار كلاهما مانع من التقوى والعمل الصالح، ولذا أصحابها هم أصحاب النار[4].

---

(١) أيسر التفاسير ٢٧٢/١.

(٢) سورة الأعراف، الآية (٣٦).

(٣) سورة الأعراف، الآية (٤٠).

(٤) أيسر التفاسير ٣٨٣/١.

قال ابن كثير: (أي كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها وهم أصحاب النار ماكثون فيها مكثاً أبداً)[1].

وقوله (وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ) هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير.

قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة.

وقال الحسن البصري[2]: حتى يدخل البعير في خرم الإبرة وكذا قال أبوالعالية والضحاك وروي عن علي بن أبي طلحة[3] عن ابن عباس.

وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: (يلج الجمل في سم الخياط) بضم الجيم وتشديد الميم، يعني الحبل الغليظ في خرم الإبرة وهذا اختيار سعيد بن جبير.

وفي رواية أنه قرأ (وحتى يلج الجمل) وهى الحبال الغلاظ[4].

ومن أمثلة التكبر على الله عزّ وجلّ قول كفار قريش حيث أمروا بالسجود للرحمن: ما الرحمن؟

يقول تعالى منكراً على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا﴾[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم١/٥٠٩.

(٢) الحسن البصري (٢١-١١٠هـ =٦٤٢-٧٢٨م): الحسن بن يسار البصري أبوسعيد التابعي، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه وهو أحد العلماء الفقهاء، الفصحاء، الشجعان، ولد بالمدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب وكان غاية في الفصاحة والحكمة وله كتاب في فضائل مكة مخطوط توفي بالبصرة، صفوة الصفوة٢/٢٢٦.

(٣) علي بن أبي طلحة: واسمه سالم بن المخارق الهاشمي، أبوالحسن، ويقال أبوأحمد مولى العباس بن عبد المطلب، أصولي من الجزيرة، وانتقل إلى حمص، روى عن أبي الدوال حبر بن نوف، الهمداني وراشد بن سعد المقرائي والقاسم بن محمد، وروى عنه ثعلبة بن مسلم وثور بن يزيد، انظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال٢٠/٤٩٠.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم١/٥١١، حجة القراءات، ص٣٩٨.

(٥) سورة الفرقان، الآية (٦٠).

قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة[1]، فأنزل الله ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[2].

(قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ) قال جوابها ﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾[3][4].

فأولئك المتبجحين المتطاولين يقابلون الدعوة إلى عبادة الرحمن باستخفاف واستنكار، وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا: ما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم تفورا، وهي صورة كريهة من صور الاستهتار والتطاول، تذكر للتهوين من وقع تطاولهم على الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد بلغ تطاولهم واستخفافهم أن يقولوا ما نعرف الرحمن إلا ذاك باليمامة يعنون به مسيلمة الكذاب[5]، ويرد على تطاولهم هذا بتمجيد الله سبحانه وتكبيره والتحدث ببركته وعظمته، وعظمة خلقه، وآياته المذكرة به في هذا الخلق العظيم ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[6][7].

---

(١) اليمامة: في الإقليم الثاني، طولها من جهة المغرب إحدى وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة، من جهة الجنوب إحدى وعشرون درجة وثلاثون دقيقة، كان فتحها وقتل مسيلمة الكذاب في أيام أبوبكر الصديق سنة١٢ للهجرة بقيادة خالد بن الوليد، وهي معدودة الثمر، قاعدتها حجر وتسمى جواد العروض، وسميت باليمامة بنت سهل وممن ينسب إليها جبر بن الحسن، معجم البلدان٥/٤٤١.

(٢) سورة البقرة، الآية (١٦٣).

(٣) سورة الرحمن، الآيتان (١-٢).

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور٦/٢٦٨.

(٥) مسيلمة الكذاب: مسيلمة بن حبيب الكذاب من بني حنيفة، كان منزلهم في دار ابنه الحارث ثم من بني النجار قدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه أتوا وخلفوا مسيلمة في رحالهم، وأسلموا وذكروا له مكانه فقالوا: يا رسول الله قد خلفنا صاحب لنا في رحالنا وركابنا، فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمر به لقومه فلما انتهى إلى اليمامة ارتد وادعى النبوة وجعل يسجع السجعات ووضع عنهم الصلاة وأحل لهم الخمر والزنا ونحو ذلك. انظر تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط١(١٤٠٧هـ - ١٩٧٨م)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان٣/٣٧٨.

(٦) سورة الفرقان، الآية (٦١).

(٧) في ظلال القرآن٥/١٩/٢٥٧٦.

وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية[1]. حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتب: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن أكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم، ولهذا أنزل الله تعالى ﴿ **قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا** ﴾[2]، أي هو الله وهو الرحمن.

وقال في هذه الآية: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ)** أي لا نعرفه ولا نقر به **(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا)** أي لمجرد قولك: **(وَزَادَهُمْ نُفُورًا)** فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالألوهية ويسجدون له[3].

---

(١) الحديبية: بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة: هي قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها، وبين الحديبية ومكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم وهو أبعد الحل من البيت، معجم البلدان٢/٢٢٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية (١١٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم٢/٩٥٦.

المطلب الثاني
الاستكبار عما جاء به الرسل

من أنواع الكبر، التكبر على الرسل، وذلك من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظآن أنه محق فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة، ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق ولتواضع الرسل، كما حكى الله قولهم ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[1]. هكذا أعلنوا متعجبين من دعوة موسى وهارون إلى الإيمان برسالتهما فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا؟! أي كيف يكون هذا، أنتبع رجلين مثلنا فنصبح نأتمر بأمرهما وننتهي بنهيهما، وكيف يتم ذلك وقومهما – يعنون بني إسرائيل– لنا عابدون خاضعون لنا ومطيعون لأمرنا ونهينا[2].

وعند العرب كل من دان لملك فهو عابد له[3].

وفي قولهم ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[4]. فبدلاً أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته، لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم، ولا يسألون أنفسهم: لماذا يرغب الرسل في تحويلهم؟ وبطبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول لا يفكرون فيما كان يعبد آبائهم وما قيمته؟! وما حقيقته؟ وكذلك لا يفكرون في الدعوة الجديدة إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق (**فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ**).

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (٤٧).

(٢) أيسر التفاسير ٨٢٣/٢.

(٣) الأساس في التفسير ٣٦٤٥/٧ .

(٤) سورة إبراهيم، الآية (١٠).

والرسل لا ينكرون بشريتهم بل يقررونها ولكنهم يوجهون الأنظار إلى منة الله في اختيار رسل من البشر وفي منحهم ما يؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى قال تعالى ﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾(١)(٢).

قال الرسل: صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده بالرسالة والنبوة.

ويقول أولئك المعرضون عن الحق في إتباع الرسل ﴿ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾(٣).

يريدون لمغبونون بترككم آلهتكم وإتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم(٤). (إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ) أي خاسرون لحياتكم ومكانتكم(٥).

قال النسفي: ومن حمقهم أنهم أبوا إتباع مثلهم، وعبدوا أعجز منهم (٦).

فهؤلاء المستكبرين عن إتباع الرسل جعلوا إتباع الرسل خسراناً ولم يجعلوا عبادة الأصنام خسراناً، فالخسران إذا كانت هنالك طاعة من غير أن تكون هنالك منفعة.

والكافرون الذين لا يؤمنون بالساعة، والذين قالوا عن القرآن أنه كذب وأنه سحر، وقالوا عن الرسول ما قالوا، يعرض الله عزّ وجلّ علينا قولاً جديداً من أقوالهم قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾(٧).

---

(١) سورة إبراهيم، الآية (١٠).

(٢) في ظلال القرآن ١٤٢/١٣/١٣.

(٣) سورة المؤمنون، الآية (٣٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي١٢١/١٢/٦.

(٥) أيسر التفاسير ٨٣٣/٢.

(٦) تفسير النسفي٣١٠/٣.

(٧) سورة الفرقان، الآية (٢١).

طلبوا أن تنزل عليهم الملائكة أو يرون ربهم **(لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ)** أي أضمروا التكبر عن الحق في قلوبهم، واعتقدوه عناداً وكفراً. وقوله تعالى **(وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا)** أي تجاوز الحد في الظلم والطغيان. ووصفه تعالى عتوهم المذكور بالكبر يدل على أنه بالغ في إفراطه، وأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو. وهذه الآية تدل على أن تكذيب الرسل بعد دلالة المعجزات ووضوح الحق وعنادهم والتعنت عليهم بطلب إنزال الملائكة أو رؤية الله استكبار عن الحق عظيم، وعتو كبير يستحق صاحبه النكال والتقريع(١).

هذا سياق ذكر أقوال المشركين من قريش، وصورة لاستكبارهم وكفرهم واستنكارهم للبعث، أي إنكار للحياة الثانية بكل ما فيها من نعيم وعذاب، فقولهم أي هلا أنزل علينا الملائكة تشهد لمحمد بالنبوة أو نرى ربنا فيخبرنا بان محمداً رسوله، وأن علينا أن نؤمن بما جاء ودعا إليه، لقد استكبر هؤلاء المشركون المكذبون بالبعث في شأن أنفسهم ورأوا أنهم شيء كبير، وطغوا طغياناً كبيراً في قولهم هذا الذي لا داعي إليه إلا الشعور بالكبر والطغيان النفسي الكبير(٢).

ومنه قولهم ﴿**وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ**﴾(٣). أي وقالوا هلا أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ملك يعلمنا أنه نبي، **(وَلَو أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ)**، أي لقضي أمر هلاكهم **(ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ)** أي لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين لأنهم لو شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدونه، فلو جعلناه ملكاً كما اقترحوا لجعلناه رجلاً، قال تعالى **(وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ)**(٤). أي لأرسلناه في

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، عالم الكتب، لبنان، بيروت، ٨٦٤/٢.

(٢) أيسر التفاسير ٨٦٤/٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية (٨).

(٤) سورة الأنعام، الآية (٩).

صورة رجل (وَلَلَبَسْنَا) أي لخلطنا وأشكلنا عليهم من أمره إذا كان، فيسلكون معه كسلوكهم معك يا محمد فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان ليس بملك[1].

وقد قال فرعون فيما أخبر عنه إنكاراً لدعوة موسى ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[2]. أي هلا إن كان موسى صادقاً أنه رسول رب العالمين، جاء معه الملائكة مقترنين، اقترن بعضهم ببعض فتتابعوا يشهدون له بأنه رسول الله إليهم[3].

وقال تعالى ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[4].

أي أرض مصر[5] بغير الحق الذي يحق لهم الاستكبار (وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) أي كذبوا بالبعث الآخر حيث اعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد[6].

وصورة أخرى لتكبر البشر على الرسل قول كفار قريش فيما أخبر الله عنهم ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[7]. وقال هؤلاء

---

(١) الأساس في التفسير ١٥٨١/٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية (٥٣).

(٣) جامع البيان ٨٢/٢٥/٣.

(٤) سورة القصص، الآية (٣٩).

(٥) مصر: سميت بمصر بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام، وهي من فتوح عمرو بن العاص في أيام عمر بن الخطاب، طولها أربع وخمسون درجة، وعرضها تسعة وعشرون درجة في الإقليم الثالث، ولم يذكر عزّ وجلّ في كتابه مدينة بعينها غير مكة ومصر، ومن مفاخر مصر مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرض مصر تنقسم إلى قسمين صعيدها وهو يلي مهب الجنوب منها، وأسفل أرضها وهو يلي مهب الشمال منها، معجم البلدان١٣٧/٥.

(٦) انظر الأساس في التفسير ١٤٠٨٦/٧١، وأيسر التفاسير ٩٣٤/٢.

(٧) سورة الزخرف، الآية (٣١).

المشركون بالله من قريش لما جاءهم القرآن من عند الله هذا سحر، فإن كان حقاً فهلا نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف[١].

اختلف أهل التأويل في الرجلين: ورد عن ابن عباس قال: يعني بالعظيم الوليد بن المغيرة[٢]، من قبيلة قريش أو حبيب بن عمرو الثقفي[٣]. وعن مجاهد قال: عتبة بن ربيعة[٤] من أهل مكة وابن عبد ياليل[٥] من الطائف.

يقول الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال جلّ ثناؤه مخبراً عن هؤلاء المشركين، **(وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ)**، إذا كان جازاً أن يكون بعض هؤلاء، ولم يضع الله تبارك وتعالى لنا الدلالة على الذين عنوا منهم في كتابه ولا على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم والاختلاف فيه موجود)[٦].

---

(١) الطائف: هي وادي بلاد تثقيف، وبينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً، وهي ذات مزارع ونخل وأعناب، وبها مياه جارية وجل أهلها ثقيف وحمير وقوم من قريش، وهما محلتان إحداهما يقال لها طائف ثقيف والأخرى يقال لها الرهط، معجم البلدان٤/٨.

(٢) الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أبوعبدشمس، ولد سنة ٩٥ ق م، من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش وزناديقها، يقال له العدل لأنه كان يعدل قريش في كسوة الكعبة، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم وهلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر وهو والد خالد بن الوليد، الأعلام٨/١٢٢.

(٣) حبيب بن عمر بن عمير بن عوف بن نميرة بن عوف بن ثقيف الثقفي، روى ابن جرير عن طريق عكرمة في قول الله في الآية (٢٧٨) من سورة البقرة، نزلت في ثقيف منهم مسعود وحبيب وربيعة وعبد ياليل، الإصابة١/٦٦٢.

(٤) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أبوالوليد كبير قريش وأحد سادتها في الجاهلية، كان موصوفاً بالرأي والحلم والفضل، توسط للصلح في حرب الفجار بين هوازن وكنانة وقد رضي الفريقان حكمه، أدرك الإسلام وطغى، وشهد بدراً مع المشركين، قتل سنة٢هـ في بدر، الأعلام٤/٢٣٣.

(٥) ابن عبد باليل بن عمرو بن عمير بن عوف بن نميرة بن عوف، ذكره ابن حيان من الصحابة وقال: كانت له صحبة وكان من الوفد، وأمه خالدة بنت سلمة، وهو أخ حبيب بن عمرو، الإصابة٥/٢٥٢.

(٦) جامع البيان١٣/٢٥/٦٥.

﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾[1]. أهؤلاء القائلون لولا نزل على الرجل من القريتين يا محمد يقسمون رحمة ربك بين خلقه، فيجعلون كرامته لمن شاءوا وفضله لمن أرادوا أم الله الذي يقسم ذلك فيعطيه من أحب ويحرمه من شاء [2].

ومن هؤلاء المشركين من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقاً، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف به قال تعالى مخبراً عنهم ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[3].

يعني جلّ ثناؤه لما جاء اليهود من بني إسرائيل **(كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ)** ويعني بالكتاب القرآن **(مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ)** يعني مصدق للذي معهم من الكتب التي أنزلها الله من قبل القرآن **(وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)** يستفتحون بمحمد صلى الله عليه وسلم الاستفتاح والاستنصار قبل مبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا من الحق عليهم لله ولأنبيائه كما قد ثبت عندهم صحته، تعمدوا الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد قيام الحجة بنبوته عليهم وقطع الله عزّ وجلّ بأنه رسوله إليهم[4].

كانت اليهود إذا قاتلت المشركين استنصروا باسم نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالنبوة كفروا به ولم يؤمنوا به وبرسالته[5].

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٣٢).

(٢) جامع البيان١٣/٢٥/٦٥.

(٣) سورة البقرة، الآية (٨٩).

(٤) جامع البيان١/٤١٠.

(٥) زاد المسير في علم التفسير ١/٩٨.

وقال ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

قال السدي: تكبروا بها وقد استيقنتها أنفسهم[2].

قال ابن حيان[3]: (كفروا بها وأنكروها في الظاهر، وقد استيقنت أنفسهم بالباطن أنها آيات من عند الله وكابروا وسموها سحراً وما حملهم على الإنكار والجحود مع استيقان أنها آيات الله هو الظلم والعلو)[4].

وترى الباحثة إن إنكار دعوة الرسل عليهم السلام ليس وقفاً على فرعون وكفار قريش وما ورد من قصص الأنبياء مع أقوامهم في القرآن الكريم فإنا نجد أن مسألة إنكار الحق وعدم الخضوع له باقية إلى قيام الساعة عند كل من استكبر عن الخضوع لدعوة الرسل وكفر بها.

وتأييد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ورد في الكتب السماوية كما ورد خبر الكتب السماوية في القرآن الكريم، فعليه نعتبر أن من أنكر دعوته صلى الله عليه وسلم فقد أنكر ما جاء به الوحي من تأييد لرسالته ونبوته، وهذا ما ذهب باليهود والنصارى إلى تحريف كتبهم.

فالكبر على الله عزّ وجلّ كفر، والكبر على رسل الله كفر، وكذلك الكبر على عباد الله كفر إذا أدى إلى رفض الحق والخضوع له.

---

(١) سورة النمل، الآية (١٤).

(٢) الدر المنثور ٦/١٩/٣٤٣.

(٣) ابن حيان (٦٥٤-٧٤٥هـ) (١٢٥٦-١٣٤٤) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي، الجياني الأندلسي، أثير الدين أبوحيان، أديب، نحوي، مفسر، لغوي، محدّث، مقرئ، مؤرخ، ينسب إلى قبيلة البربرية بمطخارس من أعمال غرناطة، ولد في آخر شوال سنة ٦٥٤هـ وأخذ القراءات عن أبي جعفر، كان عالماً بالعربية وبغيرها، من اللغات مما ساعده على الاتساع في المعرفة، كان يجيد الفارسية التركية، كما أتقن الحبشية، تولى تدريس التفسير بالمنصورة، من تصانيفه: البحر المحيط وغيرها، معجم المؤلفين ٣/٧٨٤.

(٤) تفسير البحر المحيط ٧/٥٨.

المبحث الثاني
آثار الغرور والكبر وعواقبهما

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : صرف المستكبر عن الحق.

المطلب الثاني: الاستهزاء والسخرية.

المطلب الثالث: الكبر الطبقي.

المطلب الأول
صرف المستكبر عن الحق

من الأثر الذي يتركه التكبر على المستكبر هو الحرمان من النظر والاعتبار، فتراه يمر على آيات الله المبثوثة في النفس والكون وهو في إعراض تام عنها ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[1]. ومن حرم النظر والاعتبار كانت عاقبته البوار والخسران المبين لأنه سيبقى مقيماً على عيوبه وأخطائه، غارقاً في أوحاله حتى تنتهي الحياة[2].

يخبر تعالى في الآية عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات، ثوابت، سيارات، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج وقفار شاسعة، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية[3].

ولا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها[4].

فالمطلوب ألا تمر على آيات الله وأنت معرض عنها بل على الإنسان أن يقبل إقبال الدارس، إما لتنتهي إلى قضية إيمانية تثري حياتك وتعطيك حياة لا نهاية لها وهي حياة الآخرة أو تسعد حياتك وحياة غيرك بأن تبتكر أشياء تفيدك وتفيد البشرية[5].

---

(١) سورة يوسف، الآية (١٠٥).

(٢) آفات على الطريق ١/١٤٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/٥١٠.

(٤) تفسير الرازي ٩/١٨/١٧٨.

(٥) تفسير الشعراوي، خواطر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم، ط١(١٤١١هـ-١٩٩١م)، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية، ١٢/٧١١٥.

وملخص القول أن من كان في قلبه كبر قد يكون حائلاً دون النظر والتفكر في آيات الله ودلائله والاعتبار، وقد يعمي الكبر بصره عن الحق.

وداء الكبر هذا قد ينمو نمواً قاتلاً حتى يعمي البصيرة ويجعل القلوب لا تعي شيئاً إلا ما يرضي كبر الأنفس وهذا ما عبر القرآن عنه بالطبع على القلوب ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[1].

(ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ) أي يخاصمون خصاماً شديداً **(فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ)** أي المحيط بأوصاف الكمال لا سيما الآيات الدالة على يوم التناد فإنها أظهر الآيات على وجوده سبحانه وعلى ما هو عليه من الصفات والأفعال.

(كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) أي الملك الأعظم والذين هم خاصته. **(كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ)** أي يختم ختماً فيه الطبع على قلب متكلف ما ليس له وليس لأحد غير الله ظاهر الكبر قهار[2].

يقول الطبري في الآية: (كذلك يضل الله أهل الإسراف والغلو في ضلالهم بكفرهم بالله واجترائهم على معاصيه، المرتابين في أخبار رسله الذين يخاصمون في حججه التي أتتهم بها رسله ليدحضوها بالباطل من الحجج بغير سلطان أتاهم وكبر ذلك الجدال الذي يجادلون عند الله وعند الذين آمنوا بالله وكذلك يطبع على كل قلب متكبر على الله أن يوحده ويصدق رسله وجبار يعني متعظم عن إتباع الحق)[3].

عن ابن مسعود قال: ما رآه المؤمنون حسناً فهو حسن عند الله وما رآه المؤمنون سيئاً فهو سيئ عند الله[4].

---

(١) سورة غافر، الآية (٣٥).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط١(١٣٩٩هـ-١٩٧٦م)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ودار المعارف العثمانية، ٦٧/١٧.

(٣) جامع البيان٦٣/٢٤/١٢.

(٤) الدر المنثور لأحكام القرآن ٣١٤/٨.

(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) أي يختم عليه حتى لا يقبل الرشاد ولا يقبل الحق فهو يطبع على قلوب المتكبرين[١].

عن عكرمة والشعبي[٢] أنهما قالا: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين. وقال أبوعمران الجوني[٣] وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق[٤].

ونسب التكبر إلى القلب لأنه هو الذي يتكبر وسائر الأعضاء تبع له، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[٥][٦].

فكما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك يطبع على أن يختم على كل قلب متكبر، حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق، وقراءة العامة (على كل قلب) بإضافة قلب إلى التكبر، واختاره أيضاً أبوحاتم[٧]، وقرأ أبوعمرو[١] وابن محيصن[٢]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣١٥/٨.

(٢) الشعبي: عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي، وذو كبار قيل من أقبال اليمن، الإمام، علامة العصر، أبا عمرو الهمداني ثم الشعبي، ويقال هو عامر بن عبدالله، وكانت أمه من سبي جلولاء، ولد في إمرة عمر بن الخطاب لست خلت منها، وقيل سنة إحدى وعشرين، وكان أفقه علماء عصره، سير أعلام النبلاء ٢٩٤/٤.

(٣) أبوعمران الجوني: موسى بن عيسى بن أبي حاج، العلامة، أبوعمران الفارسي المالكي الأموي، تفقه على أبي الحسن القابسي وهو من أجلّ أصحابه، دخل الأندلس، تفقه على محمد الأدبيلي وأخذ علم أصول الكلام من أبي بكر الباقلاني، كان مولده في سنة ثمان وستين وثلاثمائة، توجه إلى القيروان وقرأ بها ودارس الفقه والحديث، توفي في القيروان في ٣رمضان سنة٤٠٣هـ، طبقات القراء ٥٩٠/٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١١٦٢/٢.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة والمزارعة، حديث رقم١٠٣، ١١٧٦/٢، البيهقي في السنن الكبرى ١١٨٦/٢.

(٦) تفسير المراغي٢٤/٢٤/٨.

(٧) أبوحاتم السجستاني: سهل بن محمد بن عثمان، العلامة، أبوحاتم السجستاني، نحوي، عالم البصرة ومقرئها في زمانه، إمام جامعها، قرأ القرآن على يعقوب المقرئ وله اختيار في القراءة، تلا عليه علي بن زياد المكي والحسين بن تميم، وقرأ من العربية عن أبي عبيدة وأبي زيد والأصمعي، وحدث عنهم، وصنف التصانيف السائدة، روى عنه أبوداؤود والنسائي في كتابيهما وأبوبكر البزار في مسنده، توفي سنة٢٥٥هـ، طبقات القراء ٢٥٨/١.

وابن ذكوان[٣] عن أهل الشام (قَلْبِ) منون على أنه (مُتَكَبِّرٍ) نعت للقلب فكني بالقلب عن الجملة لأن القلب هو الذي يتكبر[٤][٥].

قال مقاتل[٦]: المتكبر المعاند في تعظيم أمر الله والجبار المسلط في خلق الله[٧].

فنجد المغرور لحبه لذاته، ورؤيته لعمله واحتقاره لأعمال الآخرين يحاول دائماً الانتصار لنفسه والغلبة لها بالحق أو بالباطل، ويزين له الشيطان أن أفضل وسيلة توصل إلى ذلك أنما هي المراء والجدل وينطلي عليه هذا التزيين فيقع فيه حينئذٍ وتضيع عليه الأوقات ويذهب العمر سدى وذلك هو الضلال والضياع، وفي سنن

---

(١) أبوعمرو: هو الإمام الكبير المازن البصري، المقرئ، النحوي، شيخ القراء بالبصرة، اسمه زياد، ولد سنة٦٨هـ عام وفاة ابن عباس، أخذ القراءة من أهل الحجاز وأهل البصرة، عرض بمكة على مجاهد وسعيد وعطاء وعكرمة وابن كثير وغيرهم، كان قليل الحديث جداً، بحراً في كلام العرب، وصدوقاً دارساً للقرآن، قرأ عليه خلق كثير، توفي سنة٥٤هـ بالكوفة، طبقات القراء، شمس الدين الذهبي (٦٨٣هـ-٧٤٨هـ)، تحقيق أحمد خان، مركز الملك فيصل للبحوث، ط١(١٤١٨هـ-١٩٦٨م)، ٩١/١.

(٢) ابن محيصن: أبوعبدالله محمد بن عبدالرحمن بن محيصن السهمي، مولاهم المكي، قارئ أهل مكة، سمع ابن كثير وحميد الأعرج، وفي اسمه أقوال: من قال عمر بن عبدالرحمن ومن سماه عبدالرحمن بن محمد، وقيل محمد بن عبدالله بن محيصن، وهو ثقة في الحديث، قرأ على سعيد بن جبير ومجاهد، حدث عن أبيه، قرأ عليه شبل بن عباد وأبوعمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وغيرهم، توفي سنة١٢٣هـ بمكة، انظر: طبقات القراء ٨٩/١.

(٣) ابن ذكوان: عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان، الإمام، أبوعمرو وأبومحمد البهراني، مولاهم الدمشقي، مقرئ دمشق، وإمام جامعها، قرأ على أيوب بن تميم وغيره، وقيل قرأ على أبي الحسن الكسائي، قرأ عليه هارون بن موسى الأخفش ومحمد بن موسى وغيرهم كثير، قال ولدت يوم عاشورا سنة١٧٣هـ، توفي في يوم الاثنين آخر ليلتين من شوال سنة٢٤٢هـ، ٢٣٢/١.

(٤) وردت القراءة بهذه الصورة في حجة القراءات، لأبي زنجلة، ص٦٣٠.

(٥) الجامع لأحاكم القرآن، القرطبي٣١٣/٢٥/٨.

(٦) مقاتل: هو أبوالحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي، أصله من بلخ، عاش في البصرة ثم في بغداد، وكان مفسراً ومتكلماً، توفي سنة١٥٠هـ بالبصرة، انظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، أبومحمد عبدالله بن أسعد بن سليمان اليافعي، ط٢(١٣٩٠هـ-١٩٧٠م)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٣٠٩/١.

(٧) تفسير البحر المحيط، لابن حيان٤٦٥/٧.

الترمذي[1] نعت النبي صلى الله عليه وسلم النظر إلى ذلك فقال: (ما ضل قومي بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)[2].

قوله صلى الله عليه وسلم: (أنا زعيم بيت في ربض الجنة[3] لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)[4][5].

من حرم النظر والاعتبار كانت عاقبته البوار والخسران المبين لأنه سيبقى مقيماً على عيوبه وأخطائه، وقد صرح الله سبحانه وتعالى بهذا الأثر في قوله ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾[6]، أي سأضع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي عن قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق. كما قال تعالى ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[7]. وقال تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ

---

(١) الترمذي: هو أبوعيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي، ولد سنة٢١٠هـ في بوغ، من أعمال ترمذ على نهر جيحون، درس أول الأمر في بخارى ثم طاف خراسان والعراق والحجاز، ويعد البخاري أحد شيوخه، توفي سنة٢٧٩هـ في ترمذ، انظر: مرآة الجنان١٩٣/٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن من سورة الزخرف حديث رقم٣٢٥٣ ، ٥٣٥/٥١.

(٣) ربض الجنة: ما حولها خارجاً عنها تنبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع، انظر: النهاية في غريب الحديث، للإمام مجد الدين أبوالسعادات المبارك بن محمد الجوزي بن الأثير (٥٤٤هـ-٦٦هـ)، تحقيق محمود محمد الطناحي، وطاهر أحمد الذادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٨٥/٢.

(٤) أخرجه أبوداود في سننه، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، دار الحديث، القاهرة طباعة نشر توزيع، كتاب الأدب باب في حسن الخلق، حديث رقم ٤٨٠٠، ٢٥٣/٤.

(٥) آفات على الطريق١٤٥/١.

(٦) سورة الأعراف، الآية (١٤٦).

(٧) سورة الأحقاف، الآية (١١٠).

قُلُوبَهُمۡ ﴾[1]. وكما قال ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا ﴾[2]. وكما قال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾[3]. وقوله (وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا) وإن ظهر لهم سبيل الرشد أي طريق النجاة لا يسلكوها وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلا ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا) أي كذبت بها قلوبهم (وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ) أي لا يعلمون شيئاً مما فيها[4].

والمتكبرون قوم كبرت نفوسهم وبالتالي فلاحق لهم في عون أو تأييد إلهي وذلك أن الحق سبحانه، مضت سنته أنه لا يعطى عونه وتأييده إلا لمن هضموا نفوسهم حتى استخرجوا حظ الشيطان من نفوسهم بل حظ نفوسهم من نفوسهم ولعل ذلك هو المفهوم من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[5] حيث ربط نصره لهم بحالهم التي كانوا عليها من المسكنة والتواضع وهضم النفس، وكأن هذه الحال إذا انعدمت أو غابت غاب معها العون والتأييد[6].

وترى الباحثة: أن قلب المتكبر وبصيرته يعميها الله تعالى فلا يهتدي إلى الحق والنور أبداً جزاء من الله وعقاباً لهم على تعنتهم وصرفهم عن قبول الحق والإذعان له، ولا يستكبر عن الحق إلا من لا يؤمن بالآخرة، ويكفيه خزياً أن الله تعالى لا يحبه ومعلوم أن الله لا يكرم إلا من أحبه ورضي به.

---

(١) سورة الصف، الآية (٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٢٥).

(٣) سورة يونس، الآيتان (٩٦-٩٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم١/٥٣٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية (١٢٣).

(٦) آفات على الطريق١/١٤٦.

المطلب الثاني
الاستهزاء والسخرية

يعتبر الاستهزاء والسخرية من الصفات القبيحة ومنها الهمز[١] واللمز[٢] والتنابز بالألقاب[٣] والإسلام ذمّ هذه الخصال وقبح شأنها ونهى عنها، وحذّر من ارتكاب إثمها، واهتماماً بخطرها على وحدة المجتمع، وما تولده من فرقة وتقاطع وخصام تولى القرآن الكريم النهي عنها والتحذير منها وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٤].

إن الإنسان حينما ينفخ في نفسه الغرور، فيرى أنه كبير عظيم يرى غيره من الناس أصغر منه وأقل شأناً، فإنه يشعر نحوه بنوع من الاستعلاء، وهذا الشعور يجعله يترفع عن الذين يستصغرهم، فإذا أحوجته الظروف الاجتماعية إلى التماس معهم فإنه يجد نفسه مدفوعاً إلى إبراز استعلائه عليهم بأنانية مستكبرة، وهنا يعبث الشيطان بنفسه، فيحاول أن يتصيد قول أو عمل أو أي مجال من المجالات فإذا ظفر بعيب في الجسم، أو القول، أو بنقص في الرأي أو بمخالفة للمعتاد في الحركة أو المشي أو اللباس، أسرع إلى لفت الأنظار إليه والاستهزاء به والسخرية منه وربما

---

(١) الهمز: همزه يهمزه همزاً وهما مصدر همز الشيطان وهي خطواته التي يحيط بها قلب الإنسان والهماز العياب، الطعان، انظر محيط المحيط، بطرس البستاني، ص٩٤٤.

(٢) اللمز: لمزه يلمزه لمزاً عابه وأشار إليه بعينه ونحوها، تلمزه تلمسه، اللماز العياب للناس أو الذي يعيبك في وجهك واللمز الطعن في الإنسان، محيط المحيط، ص٨٣٤.

(٣) التنابز بالألقاب: نبذه عابه ونبده بكذا لقبه به، وتنابزوا بالألقاب تعايروا أو تنادوا بالألقاب القبيحة، انظر محيط المحيط، ص٥١٦.

(٤) سورة الحجرات، الآية (١١).

حاول أن يتصيد من أسمائهم أو ألقابهم ما يكون مثاراً للهزء والسخرية وكل ذلك يفعله ظلماً وعدواناً إرضاء لاستكباره واستعلائه بنفسه[١].

اختلف المفسرون في السخرية التي نهى عنها المؤمنين، قال بعضهم هي سخرية الغنى من الفقير، وقال آخرون: بل ذلك نهي من ستر الله عليه من أهل الإيمان أن يسخر ممن كشف في الدنيا ستره منهم.

وأرجح ما ذهب إليه الطبري يقوله: (الصواب في ذلك أن يقال أن الله عمّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن لا لفقره ولا لذنب ارتكبه ولا لغير ذلك)[٢].

وذلك لأن السخرية قد تتعدى سخرية الغنى من الفقير والوقوف على عيوب الناس إلى غيرها مما اعتاد عليه الناس من أنواع السخرية.

نهى المؤمنون عن الاستهزاء نهياً عاماً، فقد يكون ذلك المستهزأ به خيراً من الساخر، والقوم في كلام العرب واقع الذكران وهو من أسماء الجمع ومن هذا قول الشاعر وهو زهير[٣]:

وما أدري وسوف أخال أدري ** أقوم آل حصن أم نساء[٤]

ونهى الله سبحانه وتعالى النساء عما نهى عنه الرجال من ذلك[٥].

أسباب النزول:

---

(١) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها ٧٤١/١.

(٢) جامع البيان ١٣٠/٢٦/١٣.

(٣) زهير بن أبي سلمى بن رباح المزني، من مضر، حكيم الشعراء في الجاهلية ومن أئمة الأدب، منّ بفضله على شعراء العرب كافة، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة، وكان يقيم الحاجز من ديار نجد واستمر بنوه فيه بعد الإسلام، وأشهر شعره معلقته المشهورة، وله ديوان شعر، الأعلام ٥٢/٣.

(٤) انظر لسان العرب، ابن منظور ٥٠٥/١٢ حيث ورد القوم للرجال خاصة دون النساء مستشهداً ببيت زهير.

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندونسي، تحقيق وتعليق عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبدالعال السيد إبراهيم، ط١(١٤٠٣هـ-١٩٨٣م)، الدوحة، قطر، ٤٩٩/١٣.

قيل أن الآية نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل[١] وذلك أنه كان يمشي بالمدينة مسلماً فقال له قوم: هذا ابن فرعون هذه الأمة، فعزّ عليه ذلك وشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية.

وعن الشعبي قال: نزلت الآية في بني سلمة[٢] قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعي أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت الآية: **(بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ)**[٣].

وأما قوله **(وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ)** فنزلت على سبب أن صفية بنت حيي بن أخطب[٤] أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلا قلت إن أبي هارون وأن عمي موسى وأن زوجي محمد وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، فنزلت الآية. رواه عكرمة عن ابن عباس[٥].

(وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ) لا يغتب بعضكم بعضاً أيها المؤمنون ولا يطعن بعضكم على بعض، فجعل اللامز أخاه لامزاً نفسه، لأن المؤمنين كرجل واحد فيما يلزم بعضهم بعض من تحسين أمره وطلب صلاحه صحبته للخير، ولذلك روى الخبر عن

---

(١) عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام الخزرجي القرشي، من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، وكان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم، أسلم عكرمة بعد فتح مكة وحسن إسلامه فشهد المواقع وولى الأعمال لأبي بكر واستشهد في اليرموك وعمره ٦٢ سنة، الأعلام٤/٢٤٤.

(٢) بنوسلمة: سلمة بن سعد بن بطن، من الخزرج من الأذد، من القحطانية، وهم بنوسلمة بن سعد بن علي بن راشد بن ساورة بن تزيد بن جشم، من الخزرج، نشب إليهم كثير من الصحابة. معجم قبائل العرب٢/٥٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم٢/١٢٤.

(٤) صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنهما من سبط هارون بن عمران، سباها النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر فاصطفاها لنفسه فأسلمت وأعتقها، وجعل عقتها صداقها، وقيل وقعت في سهم دحية الكلبي فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفيت سنة خمسين وقيل اثنين وخمسين، وقيل ست وثلاثين ودفنت بالبقيع، انظر صفة الصفوة٢/٥١.

(٥) زاد المسير في علم التفسير٧/١٨٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مثل المؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)[1]. وهذا نظير قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾[2]. يعني ولا يقتل بعضكم بعضاً[3].

والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾[4]. والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال تعالى ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴾[5]. أي يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم ويمشي بينهم بالنميمة. **(وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ)** لا تتداعوا بالألقاب التي يسوء الشخص من سماعها، **(بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ)** أي بئس الصفة الاسم الفسوق وهو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يناعتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه، **(وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ)** أي من هذا فأولئك هم الظالمون[6].

وملخص القول: إن السخرية والاستهزاء هما الاستهانة والتحقير والتنبيه إلى العيوب والنقائص، على وجه يضحك الناس منه وهذا قد يكون بالكلام، وقد يكون بالمحاكاة، والتمثيل بالفعل أو القول، وقد يكون بالإشارة وهما محرمات في حق من يتأذى بهما والإشارة إليهما في القرآن الكريم وتحريمهما دليل على سمو الإسلام وعلو شأنه في رعاية الشعور الإنساني والمحافظة عليه حتى لا يجرح بكلمة أو إشارة أو محاكاة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤٥-كتاب البر والصلة والآداب، ١٧-باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، رقم الحديث٢٥٨٦، ٤/٩٩٩.

(٢) سورة النساء، الآية (٢٩).

(٣) جامع البيان١٣/٢٦/١٣٠.

(٤) سورة الهمزة، الآية (١).

(٥) سورة القلم، الآية (١١).

(٦) تفسير القرآن العظيم٢/١٢٤١.

المطلب الثالث
الكبر الطبقي

من الظواهر السيئة للكبر، ترفع فريق من الناس من ذوي المال والجاه أو من ذوي الحسب عن الفقراء والضعاف والمساكين من الناس، لمجرد أنهم دونهم في المستوى الفكري أو العلمي أو في الطبقة الاجتماعية.

حارب الإسلام هذا النوع من الكبر الذي يطلق عليه الكبر الطبقي لأنه قد يكون حائل بين المستكبر وعمل الخير ومجالس العلم، كما حدث لمشركي قريش حيث أنف فريق من ذوي الوجاهة والمكانة من أن يجلسوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجود عبيد وفقراء ومساكين من المسلمين عنده فطلبوا منه أن يخرجهم من مجلسه أو يخصص لهم مجلس، فنهاه تبارك وتعالى عن ذلك قائلاً ﴿**وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾[1][2].

روي في سبب نزول الآية أن أناساً من قريش أو من أجلاف[3] العرب قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك فأطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة فإنا نستحي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم وأتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك فعاتبه الله بهذه الآية[4].

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي لا تطرد الذين أخلصوا نفوسهم لله فاتجهوا لعابدته ودعائه في الصباح والمساء يريدون وجهه سبحانه، ولا يبتغون إلا

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٢.

(٢) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٧٤٣.

(٣) أجلاف: الجلف الرجل الجافي كالجليف، وقد جلف كفرح أو الرجل الفارغ المتجلف المهذول، انظر القاموس المحيط، ص ١٠٣، والمعجم الوسيط، ص١٣٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن ٤/٢٦.

وجهه ورضاه، ولقد تغطرس أولئك الكبراء على هؤلاء الضعاف الذين يخصهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلسه وعنايته، وطعنوا فيهم وعابوا ما فيه من فقر وضعف وما يسببه وجودهم في مجلسه من نفور السادة وعدم إقبالهم على الإسلام(١).

وقد قالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم في المكانة والشرف ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٢). وهذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً وبعضهم رفيعاً، فإذا منّ الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع كان محل محنة للغني أو الشريف، فإن كان قصده الحق وإتباعه آمن وأسلم، ولم يمنعه من ذلك مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق كانت هذه عقبة ترده عن إتباع الحق. وقالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم: أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا فمنعهم هذا من إتباع الحق لعدم ذكائهم(٣).

وإذا صح أن كبراء المشركين طعنوا في إيمان ضعفاء المسلمين فالأقرب أنهم قصدوا بذلك الكيد والفرقة بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم وصد سائر الضعفاء عنه بأن عاقبتهم الطرد والإبعاد كما يصدون الأقوياء والكبراء بإثارة الحمية والكبرياء(٤).

والله سبحانه وتعالى أمر رسوله بأن يصبر نفسه مع فقراء المؤمنين وضعفائهم، وذلك بأن لا يصرف نظره عنهم إلى غيرهم مريداً لزينة الحياة الدنيا، وفي هذا إلزام له بان يكون متواضعاً لهم ومؤانساً، مجالساً، معلماً، وأباً رحيماً، حانياً عليهم، رؤوفاً بهم، وغير مستكبر عليهم كما قال تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

---

(١) في ظلال القرآن الكريم٢/٧/١٠٩٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية (٥٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان٢/٢٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، محمد رشيد رضا٧/٤٣٨.

﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[1]. أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشياً، من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو ضعفاء، يقال إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم وحدهم ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال[2]، وعمار[3]، وصهيب[4]، وخباب،[5] وليفرد أولئك المجلس على حده فنهاه الله سبحانه وتعالى من ذلك فقال: **(وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم)**. وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء **(وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم)**.

عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا فقال

---

(١) سورة الكهف، الآية ٢٨.

(٢) بلال بن رباح، مولى أبي بكر الصديق، اسم أمه حمامة، أسلم قديماً فعذبه قومه فاشتراه أبوبكر وأعتقه، شهد بدر وأحد والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أول من أذّن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان خازنه على بيت المال، اختلف أهل السير أين مات قال بعضهم بدمشق وقيل بحلب سنة ٢٠هـ، صفة الصفوة١/٤٣٤، والإصابة١/٣٢٦.

(٣) عمار بن ياسر بن عمار بن مالك، وأمه سمية، أسلم قديماً، وكان من المستضعفين الذين يعذبون بمكة ليرجعوا عن دينهم، أحرقه المشركون بالنار، شهد بدراً وأحد والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قتل صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وقتله أبو الغادية ودفن هناك في سنة ٣٧هـ، صفة الصفوة١/٤٤٦.

(٤) صهيب بن سنان بن مالك، صحابي من أرمى العرب سهماً، وله بأس، وهو أحد السابقين إلى الإسلام، كان أبوه من أشراف الجاهليين، ولاه كسرى على الأبلة والبصرة فكانت مقر أهله في أرض الموصل على شط الفرات فأغارت الروم على ناحيتهم وسبي صهيب وقدم به إلى مكة، وأسلم وهاجر إلى المدينة وكان ربح مالاً كثيراً وترك ماله في سبيل الهجرة، شهد كل المشاهد. صفة الصفوة١/١٦٩.

(٥) خباب بن الأرت، اختلف في نسبه قيل هو خزاعي، وقيل تميمي ولم يختلف أنه حليف لبني زهرة، والصحيح أنه تميمي النسب وخزاعي بالولاء، حيث اشترته امرأة من خزاعة وأعتقته وهو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد، وهو من المهاجرين الأوائل، شهد بدر وما بعدها، توفي بالكوفة سنة ٣٧هـ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب٢/٣٢٣.

وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل[1] وبلال ورجلين نسيت اسمهما، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشاء الله أن يقع فحدث نفسه ونزل قوله **(وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم)**.

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) قال ابن عباس ولا تجاوزهم إلى غيرهم بطلب بدلهم، أصحاب الشرف والثروة، **(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا)** أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا **(وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا)** أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً ولا محباً لطريقته ولا تضبطه بما هو فيه. كما قال تعالىَ ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾[2][3].

ويتضح أن الدين ألقى مفاهيم الكبر الطبقي على أساس المال والحسب، أو الأصل والنسب، أو الولاية والمنصب واللون والعرق، وعمل على تربية المسلمين على ذلك وغرسه في حياتهم الاجتماعية ورفع من شأن الضعفاء في المجتمع حتى سواهم بغيرهم وأبان أن التفاضل عند الله بالتقوى والعمل الصالح وكان عليه الصلاة والسلام دائم الاهتمام بفقراء المسلمين وضعفائهم.

ورغم ذلك نجد الناس في كل عصر وفي كل قوم وأمة مشدودين إلى المظاهر من مال وحسب وعرق ونسب وجاه، وقد أبان الرسول صلى الله عليه وسلم أن قيم الحياة الدنيا ومفاهيمها الخاصة تتلاشى عند الله يوم القيامة ويبقى الإيمان والتقوى والعمل الصالح والإخلاص هو ميزان القيامة فلا جاه ولا مال ولا سلطان ولا جبارون وطغاة. قال رسول

---

(١) هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، كانت ديارهم بالسروات وسراتهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف، وكان لهم أماكن ومياه في أسفلها من جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة، ثم تفرقوا بعد الإسلام، هم بطنان سعد بن هذيل ولحيان بن هذيل، معجم قبائل العرب١٢١٣/٣.

(٢) سورة طه، الآية (١٣١).

(٣) تفسير القرآن العظيم٨٠٢/٢، والأساس في التفسير٣١٧٥/٦.

الله صلى الله عليه وسلم: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة)[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير في تفسير سورة المنافقين١/٢/٦٧٢.

المبحث الثالث
الهلاك والعــذاب

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الوعد بالعذاب.

المطلب الثاني: خطر الثراء الفاحش وعاقبته.

المطلب الثالث: عاقبة الطغيان والغرور.

المطلب الأول
الوعـــد بالعـــذاب

ورد في القرآن الكريم أن الاستكبار الذي يعاقب أهله يوم القيامة بعذاب الهون هو استكبار بغير حق قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[1].

يقول الطبري: (يوم يعرض الذين كفروا بالله على النار يقال لهم: اليوم أيها الكافرون الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم تثابون عذاب الهون، وذلك عذاب النار الذي يهينهم بما كنتم تتكبرون في الدنيا على ظهر الأرض على ربكم، فتأبون أن تخلصوا له العبادة وأن تذعنوا لأمره ونهيه **(بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ)** أي بغير ما أباح لكم ربكم وأذن لكم به **(وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ)** تخالفون طاعته فتنقصونه)[2].

أي ذكرهم يا محمد يوم يعرض **(ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ)** أي يكشف الغطاء فيقربون من النار وينظرون إليها ويقال لهم تمتعتم بالطيبات في الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات يعني المعاصي. قيل: الطيبات: الشباب والقوة مأخوذ من قولهم: ذهب أطيباه أي شبابه وقوته.

قال الماوردي[3]: ووجدت الضحاك قال مثله[4].

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (٢٠).

(٢) جامع البيان١٣/٢٦/٢١.

(٣) الماوردي الإمام العلامة أقضى القضاة أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الماوردي، الشافعي، صاحب التصانيف، حدّث عن الحسن بن علي وعن محمد بن عدي ومحمد بن معلى، وجعفر بن محمد ابن الفضل، حدّث عنه أبوبكر الخطيب ووثقه وقال مات في ربيع الأول سنة خمسين وأربع مائة، وله تفسير القرآن سماه النكت والعيون، وأدب الدنيا وغيرها، سير أعلام النبلاء١٨/٦٤.

(٤) أيسر التفاسير٢/١٢٢٨.

يقول الجزائري: (استحقاقكم لهذا العذاب بما كنتم تستكبرون في الأرض إذ لا حق لكم في الكبر لضعفكم وعجزكم، إنما الكبرياء لله الملك الحق، أما أنتم فقد ظلمتم باستكباركم عن الإيمان بربكم ولقائه وعن طاعته وبفسقكم عن طاعة ربكم وطاعة رسوله، إذاً فادخلوا جهنم داخرين)[1].

إذاً فهذا العذاب الذي يجازي به عقاباً لهم على استكبارهم، وهو عذاب إذلال وإهانة وهذا النوع من العذاب يناسب استكبارهم في الأرض بغير الحق، إذن هو جزاء من جنس الذنب، أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يدعوه ليستجيب لهم فاستكبروا عن عبادته بالدعاء له وكانت نتيجة استكبارهم عن عبادة الله في الدنيا أن عوقبوا على ذلك بالمذلة والصغار في نار جهنم ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2].

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ) أي أعبدوني أثبكم، (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) أي صاغرين ذليلين.

إن فسر الدعاء بالسؤال كان الأمر الصارف عنه منزلاً منزلة الاستكبار عن العبادة أو المراد بالعبادة الدعاء، فإنه أفضل أبوابها.

عن النعمان بن بشير[3] قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: (الدعاء هو العبادة وقرأ عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4][5].

---

(١) أيسر التفاسير ٢/٢٢٨.

(٢) سورة غافر، الآية (٦٠).

(٣) النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس بن زيد الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا عبدالله وهو مشهور له ولأبيه صحبه، وقيل هو أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن خالد بن عبدالله بن رواحة وعمر وعائشة، وروى عنه ابنه محمد ومولاه سالم وعروة والشعبي والسبيعي، كان قاضي دمشق بعد فضالة بن عبيد، قتل سنة خمس وستين، الإصابة٦/٤٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم ١٨٤١٦، ٦/٣٨١.

(٥) المقتطف من عيون التفاسير، مصطفى الخيري المنصوري، حققه وخرج أحاديثه محمد علي الصاوي، ط٢(١٤١٧هـ – ١٩٩٦م)، دار القلم، دمشق، ٤/٩٤٣.

الآية آية تفضل ونعمة، ووعد محمد صلى الله عليه وسلم بالإجابة عند الدعاء، وهذا وعد مقيد بشرط المشيئة وفي موافقة المقدور لمن شاء الله تعالى، لا أن الاستجابة عليه حتم لكل داع.

وقالت فرقة **(ٱدۡعُونِيٓ)** أي اعبدوني **(أَسۡتَجِب)** معناه بالثواب والنصر، ويدل على هذا التأويل قوله **(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي)** ويحتج له بحديث النعمان بن بشير، وقرأ ابن كثير وجعفر (سيُدْخَلون) بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ نافع وحمزة والكسائي وابن عامر (سيَدخُلُون) بفتح الياء وضم الخاء واللام[1].

والاستكبار ليس هو العصيان وعدم الطاعة أو الكفر وعدم الإيمان فقط، إنما هو ذلك التعالي والتحدي لما يكفر به المستكبر وليس فيه، فهذا تعريف من الناس أفاك أثيم إذا تليت عليه آيات الله وفيها الحق المبين ولى منصرفاً هنا مستكبراً عن طاعة الله كأن لم يسمعها وكأن في أذنيه وقراً يمنعه من سماع الحق، ثم إذا علم على سبيل المصادفة شيئاً من آيات الله اتخذها هزواً قال تعالى ﴿**وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ**﴾[2].

يقول تعالى ذكره: الوادي السائل من صديد أهل جهنم لكل كذاب ذي إثم بربه، مفتر عليه يسمع آيات كتاب الله تتلى عليه، ثم يصر على كفره وإثمه فيقيم عليه غير تائب منه، لا راجع عنه مستكبراً على ربه أن يذعن لأمره ونهيه، **(كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا)** كأن لم يسمع ما تلي عليه من آيات الله بإصراره على كفره **(فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ)** فبشر يا محمد هذا الأفاك الأثيم الذي هذه صفته بعذاب من الله له موجع في نار جهنم يوم القيامة[3].

---

(١) انظر تفسير ابن عطية ٢٩٨/١٣. وحجة القراءات، ص ٦٣٥.

(٢) سورة الجاثية، الآيتان (٧-٨).

(٣) جامع البيان١٤٢/٢٥/١٣.

يقول ابن عطية في قوله (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) حسن ذلك لما أفصح عن العذاب ولو كانت البشارة غير مقيدة بشيء مما حملت إلا على المحاب ومع أن العذاب الأليم لا يكون الإخبار عنه بشارة إلا أن اللائق به أن يعاقب على استهزاءه بالاستهزاء فيقدم له الإنذار في ثوب البشارة وهذا العذاب الأليم عقاب له على كبره والذي رفض بسببه إتباع الحق(١).

قال تعالى ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾(٢).

قال ابن كثير: أي بئس المقبل والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله وإتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم في قبورهم من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم(٣).

وفي مشهد من مشاهد القيامة نجد الذين كفروا يساقون إلى جهنم زمراً بحسب أنواع كفرهم وبحسب مستويات كفرهم وبحسب فئاتهم في الدنيا فمنهم المتكبرين في الدنيا، فكانت جهنم مثوى عذاب لهم قال تعالى ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ * قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾(٤)، (ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ) أي مقدراً خلودكم فيها وإبهام القائل لتهويل المقول (فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ) أي بئس مثواهم جهنم لتكبرهم

---

(١) تفسير البحر المحط١٣/١٢٩٨.

(٢) سورة النحل، الآية (٢٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم٣/٤٩٨.

(٤) سورة الزمر، الآيتان (٧١ – ٧٢).

عن الحق في أن دخولهم النار لسبق كلمة العذاب عليهم، فإنها إنما حقت عليهم بناء على تكبرهم وكفرهم[١].

(فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ) أي بئست جهنم منزلاً ومأوى للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله[٢].

وتوجه آيات القرآن الكريم المؤمنين بأن لا يغتروا بحال الكافرين الحسنة في الدنيا فيهتموا لذلك فهو متاع قليل في الحياة الدنيا ثم يكون مثواهم جهنم وبئس المثوى والمهاد.

﴿**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ**﴾[٣]، يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور فعما قليل يزول، هذا كله عنه ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنا نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً وجميع ما هم فيه متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد[٤].

فالكفار مغترون بتقلبهم والمؤمنون مهتمون به، لكنه ربما يضع في نفس مؤمن أن هذا الإملاء للكفار إنما هو لخير لهم فيجئ هذا جنوحاً إلى حالهم ونوعاً من الاغترار فلذلك حسنت **(لَا يَغُرَّنَّكَ)** أي لا يغرنهم تقلبهم والتقلب التصرف في التجارات والأرباح والحروب وسائر الآمال، ثم أخبر تعالى عن قلة ذلك المتاع إلا أنه منقض صائر إلى ذل وقل وعذاب[٥].

قال تعالى ﴿**وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾[٦] أي كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها **(أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ)** أي ماكثين فيها مكثاً مؤبداً[٧].

---

(١) تفسير أبوالسعود٥/٤٠٤.

(٢) المقتطف من التفاسير٤/٤٦٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٩٦)

(٤) تفسير القرآن العظيم، ١/٥٠٩.

(٥) تفسير البحر المحيط ٣/٤٧٢.

(٦) سورة الأعراف، الآية (٣٦).

(٧) تفسير القرآن العظيم١/٥٠٩.

فأولئك لا آمنت بها قلوبهم ولا انقادت لها جوارحهم كما استهانوا بآياته ولازموا التكذيب له أهينوا بالعذاب الدائم الملازم[1].

وخلاصة القول: أن موضوع الكبر من أدق المواضيع المتغلغلة في السلوك البشري، وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم الكبر بأنه غمط الناس وبطر الحق، فأي موقف للإنسان رفض فيه حقاً مع معرفة أنه حق أو انتقص خلق فإنه بذلك يكون سالكاً خطوات الشيطان، ومن غمط الناس ما زاد من استكبار الكثيرين عن الأخذ عن العلماء أو طاعتهم أو التواضع لهم، إذ أن الله عزّ وجل جعل التواضع لعباده تواضعاً له.

وهذا هو امتحانه الأكبر، إن إبليس لم يستنكف عن عبادة الله ولكن عندما كلفه ربه بالسجود لمخلوق مثله ظهر كبره وكفره وكثيرون يكونوا على غاية من العبادة ولكنهم يأنفون من طاعة غيرهم وعن إتباعه ولو كان في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين، وكل ذلك مظهر من مظاهر الكبر وإتباع لخطوات الشيطان إلا من عصم ربي وحفظ وبذلك استحق كل مستكبر جبار العذاب الأليم وعداً من الله سبحانه وتعالى على ما صدر منه من تكبر وتجبر واستعلاء.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/١١٥.

المطلب الثاني
خطر الثراء الفاحش وعاقبته

الثراء الفاحش الذي يتجاوز الحد قد يدفع بالمجتمعات إلى طريق التهلكة فهو يؤدي إلى الطغيان ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[1]، والى البغي ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾[2]، والغنى الفاحش يشجع على الإسراف والفسوق، وارتكاب المعاصي والبطر، وكلها آفات تنخر في عظام المجتمع، وما من شك أن الغنى الفاحش تستأثر به فئة قليلة وتعمل الاستزادة منه باطراد وبغض النظر عن الوسائل التي تتبع في اقتناء الثروات، وهذه الظاهرة تترتب عليها نتيجة اجتماعية خطيرة، هي انقسام المجتمع إلى طبقتين رئيسيتين، الأولى وهي القلة وتحتكر الثروة المادية ومعها القوة الاقتصادية التي تقوم عليها القوة السياسية، أما الطبقة الثانية وتشكل الجمهرة الكبرى فلا تملك شيئاً ويفرض عليها الاستقلال الحرماني، وهنا تقوم العلاقة بين الطرفين على الشك والعداء، وقد يرى بعض ذوي النفوس العقيمة أن هذه الطبقة مثل يمكن أن يحتذى به بغض النظر عن وسائلها وهذه المعاني تعبر عنها قصة قارون[3].

وقارون هذا رجل من بني إسرائيل، بسط الله له في الرزق حتى إن خزانته لكثرتها وثقلها تنوء بحملها العصبة القوية، وكان إلى وفرة ماله صاحب أبهة وزينة ومظاهر ونعمة وخيلاء، ورد ذكره في القرآن الكريم في سور ثلاث اقتصرت اثنتان منها على ذكر الاسم لمناسبة الحديث عن إرسال موسى إلى فرعون، أما الثالثة فتقص علينا خبر الرجل والمصير الذي انتهى إليه والأسباب التي جعلته يستحق هذا المصير، قال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ

---

(١) سورة العلق، الآيتان (٦-٧).

(٢) سورة الشورى، الآية (٢٧).

(٣) القصص القرآني، تفسير اجتماعي، د.راشد البداوي، دار النهضة العربية، القاهرة، ص١٢٧.

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾[1]، ذكرت الآية أسماء الثلاثة والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أذكر يا محمد قارون وفرعون وهامان لقد جاءهم جميعهم موسى (بِٱلْبَيِّنَٰتِ) يعني بالواضحات من الآيات، وعن إتباع موسى صلوات الله عليه (وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ) أي ما كانوا سابقين بأنفسهم، فيفوتونا بل كنا مقتدرين عليهم[2].

والآية الثانية يقول تعالى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[3] أي وأهلكنا هؤلاء بعد إذ جاءتهم الرسل فاستكبروا عن الحق وعن عبادة الله وما كانوا تائبين، وقيل سابقين في الكفر، بل في سبقهم الكفر قرون كثيرة فأهلكناهم فكلاً أخذنا بذنبه (فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) يعني قوم لوط والحاصب الريح يأتي بالحصباء وهي الحصى (وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ) يعني ثموداً وأهل مدين (وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ) يعني قارون (وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا) قوم نوح وفرعون (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ) لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر[4].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية (٣٩).

(٢) جامع البيان ١١/٢٠/١٥٠.

(٣) سورة العنكبوت، الآية (٤٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٣/٣٤٤.

وترد القصة كاملة في قوله تعالى ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ * وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ * فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾[1].

يقول تعالى ذكره **(إِنَّ قَٰرُونَ)** وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وكان من قوم موسى، وقيل: كان من عشيرة موسى بن عمران النبي عليه السلام، وهو ابن عمه لأبيه وأمه وذلك إن قارون هو ابن يصهر بن قاهث وموسى هو موسى بن عمران بن قاهث وهذا ما ذهب إليه المفسرون[2].

(فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ) تجاوز حده في الكبر والتجبر[3].

وقيل: بغيه كفره بالله عزّ وجل قاله الضحاك، وقيل بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده، وقيل نسبته ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته، وقال يحيى

---

(١) سورة القصص، الآيات (٧٦-٨١).

(٢) انظر: جامع البيان١١/٢٠/١٠٥، الجامع لأحكام القرآن١٣/٣٠٤.

(٣) جامع البيان، الطبري١١/٢٠/١٠٥.

بن سلام[1] وابن المسيب[2]: كان قارون غنياً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم[3].

وقيل **(فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ)** فطلب الفضل عليهم وأن يكون تحت أمره أو ظلمهم[4].

نجد أن كل هذه المعاني التي ذهب إليها المفسرون في قوله تعالى **(فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ)** قد تحققت في فرعون فالرجل كان ذا كبر وظالماً ومتجبراً.

(وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ) آتيناه من كنوز الأموال **(مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ)** وهو جمع مفتح وهو الذي يفتح به الأبواب، وقال بعضهم عني بالمفتاح في هذا الموضع الخزائن لتثقل العصبة، أو لتثقل بالعصبة وهي الجماعة، **(إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ)** أي لا تبغ ولا تبطر[5] فرحاً إن الله لا يحب الأشريين[6] البطريين[7].

كان العقلاء من قومه يعظونه ويقيمون له مظاهر الخيلاء ويحذرونه عواقب البطر والطغيان، ويرغبون إليه أعمال الخير، خضوعاً لله تعالى الذي رزقه، وأداء لحق النعمة

---

(١) يحيى بن سلام (١٢٤-٢٠٠هـ=٧٤٢-٨١٥م) بن سلام بن أبي ثعلبة التميمي بالولاء من تميم ربيعة، البصري ثم الأفريقي، مفسر، فقيه، عالم بالحديث واللغة، أدرك نحو عشرين من التابعين وروى عنهم، ولد بالكوفة، انتقل مع أبيه إلى البصرة فنشأ بها ونسب إليها ورحل إلى مصر ومنها إلى أفريقيا في آخر عمره، وتوفي في عودته من الحج بمصر، الأعلام١٤٨/٨.

(٢) ابن المسيب: سعيد بن المسييب بن خزف بن أبي وهب بن عمرو بن عائز بن عمران بن مخزوم بن يقظة، الإمام، العلم، أبومحمد القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه، ولد لسنتين من خلافة عمر، رأى محمد وسمع عثمان وعلياً وزيد بن ثابت وأبي موسى وعائشة وأبا هريرة، روى عنه أُبي بن كعب وبلال، توفي سنة أربع وتسعين، سير أعلام النبلاء٢١٧/٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن٣٠٩/١٣.

(٤) تفسير أبي السعود١٣٥/٥.

(٥) البطر: النشاط وقلة احتمال النعمة، والدهش والحيرة والطغيان بالنعمة وكراهية الشيء من غير أن يستحق الكراهة، وبطر الحق أن يتكبر عنه فلا يقبله، القاموس المحيط، ص٤٤٦.

(٦) الأشر: كفرح فهو أشر: مرح وبطر واستكبر فهو أشر، المعجم الوسيط، ص٦١.

(٧) جامع البيان١٠٥/٢٠/١١.

التي أغرقها عليه ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾[1]، أي أطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة فمن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي.

(وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا) قال ابن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك إذ الآخرة إنما يعمل لها فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها.

(وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ) أي أطع الله وأعبده كما أنعم عليك ومنه الحديث: (أخبرني ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه)[2][3].

(وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ) أي لا تعمل المعاصي إن الله لا يحب المفسدين[4].

تمادى فرعون في غروره فزعم أنه أحرز ماله بعلم أتقنه لا بفضل من الله كأن لم يعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾[5].

أن الله قد أهلك من قبله من الأمم من هو أشد منه بطشاً وأكثر جمعاً للأموال ولو كان الله يؤتي الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده ولرضاه عنه، لم يكن يهلك من أهلك من أرباب الأموال الذين كانوا أكثر منه مالاً، **(وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن**

---

(١) سورة القصص، الآية (٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، ١-كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، حديث رقم٨، ٣٧/١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن٣١١/١٣.

(٤) جامع البيان١١٧/٢٠/١١.

(٥) سورة القصص، الآية (٧٨).

ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ) لأنهم يدخلون النار بغير حساب، اهلك من أهلك من القرون عن علم بذنوبهم فلم يحتج إلى مسائلتهم عن ذنوبهم[1].

خرج قارون يوماً في موكبه فبهر مظهره المخدوعين بأبهة الحياة الدنيا فوعظهم العقلاء بأن رضوان الله خير من المال والجاه ومظاهر الخيلاء[2].

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[3].

(فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ) أي على بني إسرائيل فيما رآه من زينة من متاع الحياة الدنيا من ثياب ودواب، وقيل: كان خرج في سبعين ألفاً من تبعه عليهم المعصفرات[4]، وكان أول من صبغ له الثياب المعصفرة (قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ) أي نصيب وافر من الدنيا (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ) وهم أحبار[5] بني إسرائيل للذين تمنوا مكانه (وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ) يعني الجنة لمن آمن وعمل صالحاً ولا يؤتى الأعمال الصالحة إلا الصابرون على طاعة الله[6].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن١٣/٣١٦.

(٢) مع القرآن الكريم، د.أحمد محمد المدني، دار النهضة للطباعة والنشر، القاهرة، ١/١٢٨.

(٣) سورة القصص، الآيتان (٧٩-٨٠).

(٤) المعصفرات: عصفر الثوب: صبغه بالعصفر، فهو معصفر جمعها معصفرات والعصفر نبات صيفي من الفصيلة المركبة أنبوبية المزهر يستعمل تابلاً ويستخرج منه صبغ أحمر يصبغ به الحرير وغيره، المعجم الوسيط، ص٦٥، محيط المحيط، ص٩٣.

(٥) أحبار: حبر، الحبار العالم أو الصالح جمعها أحبار، القاموس، ص٤٧٢.

(٦) الجامع لأحكام القرآن١٣/٣١٧.

وكانت عاقبة قارون أن خسف الله به وبداره الأرض عقاباً له على فساده وطغيانه وكفرانه وجحده نعم الله عليه فلم ينفعه ماله ولم يحمه أعوانه، قال تعالى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[1].

يقول تعالى ذكره: فخسفنا بقارون وأهل داره وهم على مثل الذي عليه من النفاق والمؤازرة على أذى موسى الأرض، فلم يكن له جند يرجع إليهم ولا فئة ينصرونه لما نزل به سخطه، بل تبرءوا منه ولا كان هو ممن ينتصر من الله إذا أحل به نعمته فيمتنع لقوته منها[2].

وخلاصة القول أن الإسلام لا يحرم السعي وراء اجتناب المال، ولا ينهي عن الغنى ولكن يشرط أن يتم هذا بطريق مشروع وبأداء حق الله المشروع وإنفاق المال في أوجهه السليمة في غير بزخ أو إسراف، حتى لا يكون المال سبب لشقاء من جمعه في الدنيا وذلك بما يسببه له من قلق واضطراب بسبب الخوف على ماله وحرصه عليه من الضياع، وسبب لعقابه في الآخرة إذا لم يؤد حق الله عليه، وربما لهلاكه في الدنيا، فكان الأجدر أن يعتبر بقصص المستكبرين الطغاة من أصحاب الأموال وينظر ماذا فعل الله بهم.

---

(١) سورة القصص، الآية (٨١).

(٢) جامع البيان ١١/٢٠/١١٩.

المطلب الثالث
عاقبة الطغيان والغرور

الإنسان المغتر لا يرى لأحد عليه فضلاً بل يرى إن الفضل لنفسه دوماً معلناً ذلك وهاتفاً به، فكفران نعم الله وعدم شكرها غرور، والاستبداد بالرأي وإكراه الآخرين غرور، ومدح النفس والمبالغة في الاطراد غرور، ونجد إن من دواعي الغرور في النفس نكران نعم الله سبحانه وتعالى، يغتر الشخص بما عنده من نعم الله ويفتخر ويتباهى بها وهو نتاج طبيعي لما به من غرور وإعجاب بالنفس، ولا يفخر أحد على أحد أو يتباهى بما عنده إلا وهناك قصور منه في جانب الحق تعالى المنعم عليه وحمده وشكره على نعمه وفضائله، وبالتالي يحرم من توفيق الله سبحانه وتعالى ويكله الله سبحانه وتعالى إلى نفسه الأمارة بالسوء فتراه يتباهى ويتفاخر ناسياً لمعايير التفاضل بين الناس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

وربما أتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا، وأنه يعتني به ويظن أن ذلك محبة الله له وأنه سيعطيه في الآخرة أفضل من ذلك فهذا من الغرور، قال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[2].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله عزّ وجل يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فأحذره فإنما هو استدراج منه، يستدرجك به، وقد قال تعالى ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن

(١) سورة الحجرات، الآية (١٣).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٤٤).

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1]، وقد رد سبحانه وتعالى على من يظن هذا الظن بقوله ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ * كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾[2] أي ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أهنته، بلى ابتلي هذا بالنعم وأكرم هذا بالابتلاء.

فرب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم[3].

وقد يكون السبب في التكبر والغرور إنما هو ظن دوام النعمة أو عدم التحول عنها، ذلك إن بعض الناس قد تأتيه النعمة من الدنيا وتحت تأثيرها وبريقها يظن دوامها أو عدم التحول عنها، وينتهي به هذا الظن إلى التكبر أو الترفع أو التعالي على عباد الله، فيأخذ في الموازنة أو المقارنة بين نعمته ونعمة الآخرين ونسيان المنعم فيراهم دونه فيها فحينئذ يحتقرهم ويزدريهم ويضع من شأنهم وهذا هو التكبر وقد لفت القرآن الكريم إلى هذا النوع من الباعث على الكبر من خلال حديثه عن قصة صاحب الجنتين[4].

صاحب الجنتين:

صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري تذهله الثروة وتبطره النعمة فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على الناس والحياة ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره[5].

---

(١) سورة الزخرف، الآيات (٣٣-٣٥).

(٢) سورة الفجر، الآية (١٥-١٧).

(٣) الجواب الكافي لما سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، خرج أحاديثه وعلق عليه محمد خلف يوسف، دار التوزيع والنشر الإسلامية (١٤٢٠هـ-١٩٩٩م)، ص٤٣.

(٤) آفات على الطريق ١/١٣٩.

(٥) في ظلال القرآن الكريم ٤/١٥/٢٢٧.

قال تعالى ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا * كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا * وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا * وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا * قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا * لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا * وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا * فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا * أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا * وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ﴾[1] هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين وأمثالهم المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين وافتخروا بأموالهم وأحسابهم، أي أضرب مثلاً أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله الذين طلبوا منك طرد المؤمنين المخلصين لله صباح ومساء وفي كل وقت[2].

وذلك المثل هو حال رجلين جعل الله لإحداهما جنتين أي بستانين من أعناب محاطين بنخيل وفي وسطهما الزروع وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة فجمع بين القوت والفاكهة فقوله **(وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ)** أي وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين[3].

---

(١) سورة الكهف، الآيات (٣١-٤٤).

(٢) انظر: إلى المبحث الثاني من هذا الفصل، المطلب الثالث، ص

(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د.وهبة الزجيلي، ط١(١٤١١هـ-١٩٩١م)، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ودار الفكر، دمشق، سوريا، ٢٥١/١٥.

هذا النعيم الكبير ينعم الله به على كثير من خلقه ويجعله فتنة وامتحان، فليس كل إنسان يصبر عليه، وليس كل إنسان يطيقه فمن الناس من يغتر به وتنتفخ له أوداجه، ويتيه به كبراً على العباد ويطغى ويخرج عن حده ويظلم ويفسق ويحمل الناس من وراء طغيانه ما لا يطيقون، ومن الناس من يعرف نعمة الله ويرعى حقه ويؤدي واجبه، فينظر إلى هذا النعيم على أنه فرصة هيأها الله له ليحسن ويتصدق، ويسعى في الخيرات ويقوم بنافع الأعمال، وقد كان هذا الرجل الذي ضربه الله مثلاً للطغيان والاستكبار، فبهرته نعمته فأغشت عينيه وقلبه فتكبر ونسي أنه مخلوق ضعيف محتاج إلى رحمة الله في كل لحظة فقال لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[1][2].

(وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ) قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي وكان له (ثُمر) بضمتين، وقرأ عاصم (وكان له ثمرَ) و(أحيط بثمره) بفتح التاء والميم، وقرأ أبوعمرو (ثُمْر)، قال الفراء: الثمر بفتح الثاء والميم المأكول وبضمهما المال[3].

(قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ) أي يراجعه الكلام ويجاوبه، وفيما تحاورا فيه قولان أحدهما: أنه الإيمان والكفر، والثاني: طلب الدنيا وطلب الآخرة[4].

وجعل يقول لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر[5].

وجعل يستعرض جنتيه وما فيها من ثمار وخيرات فقال كلمة الجهل والكفر والغرور ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا * وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[6].

---

(١) سورة الكهف، الآية (٣٤).

(٢) القصص الهادف كما نراها في سورة الكهف، فضيلة الشيخ محمد محمد المدني، أشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط١(١٣٨٤هـ-١٩٦٤م)، ص١٣٩.

(٣) حجة القراءات، ص٤١٦.

(٤) زاد المسير في علم التفسير ٥/٩٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم٣/١٥/٨٧.

(٦) سورة الكهف، الآيتان (٣٥-٣٦).

أما كلمة الجهل فهي قوله (مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا) وأما كلمة الكفر فهي قوله (وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً) وأما كلمة الغرور (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا)[1].

أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله تعالى ليكونن لي هنالك أحسن من هذا الحظ عند ربي ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾[2] وقال ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾[3]، أي في الدار الآخرة وتألى على الله سبحانه وتعالى وكان سبب نزولها في العاص بن وائل[4][5].

قد يكون الاغترار بالمال سبباً لإنكار البعث والقيامة والحشر والنشر، لأن الغني الظالم يرى في المادة كل شيء، وقد يستبد به الغرور لغفلة منه وضعف عقل فيزعم أن عطاء الدنيا له لاستحقاقه ويقول: إن كان بعث فكما أعطاني الله هذه النعم في الدنيا فسيعطيني أفضل منها لكرامتي ومكانتي.

يقول المؤمن للكافر في قضية إنكار الساعة ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا * لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[6].

---

(١) القصص الهادف، ص١٤٠.

(٢) سورة فصلت، الآية (٥٠).

(٣) سورة مريم، الآية (٧٧).

(٤) العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي، من أشراف قريش، والد عمرو بن العاص، أمير الأجناد، الصحابي المعروف، الإصابة٤/٦٥٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم٣/١٥/٨٨.

(٦) سورة الكهف، الآيات (٣٧-٣٨).

قال له المؤمن منكراً عليه كفره **(أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ)** لأن خلقه من تراب ثم من نطفة حتى صار رجلاً يقتضي إيمانه بخالقه الذي أبرزه من العدم إلى الوجود، وهذا المعنى بينه تعالى في مواضع أخرى كقوله ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(١)، وقوله تعالى﴿**وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(٢)(٣).

ويواصل المؤمن نصحه للمغتر ﴿**وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا**﴾(٤) أي كان عليك حين دخلت جنتك ورأيت بهاءها وأعجبتك أن تذكر من أنعم بها وأن تقر بفضله عليك وإحسانه إليك فهلا **(قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ)** فأرجعت الأمر إلى مشيئته لا استحقاقك الذاتي وأقررت أنه هو الذي إذا شاء الإعطاء فأعطى وهو الذي إن شاء الإبقاء بقى وإن شاء الحرمان حرم(٥).

أي هلا حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال أو الولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من ماله أو ولده فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة(٦).

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨).

(٢) سورة يس، الآية (٢٢).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن٤/١٠٣.

(٤) سورة الكهف، الآيات (٣٩-٤٠).

(٥) القصص الهادف، ص١٤٧.

(٦) تفسير القرآن الكريم٣/١٥/٨٩.

وثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

وفي قضية الافتخار بالولد أجابه المؤمن **(إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ)** إنك تنظر إليّ بأني أفقر منك في المال وأقل منك أولاداً وعشيرة في هذه الدنيا، فإني أرجو أن يعطيني الله خيراً من جنتك في الدار الآخرة[2].

وقد أرد الله أن ينتزع من هذا المغرور نعمته ويهلك جنته فأصبح يوماً فإذا ثماره قد أحيط بها وأصابها التلف والفساد وهي خاوية على عروشها ﴿**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدًا * وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا**﴾[3].

فقد وقع بهذا الكافر ما كان يحذر خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي أغتر بها وألهته عن الله عزّ وجل[4].

لم يقل أحيط بزرعه أو نخله، لأن الإحاطة قد تكون بالشيء ثم يثمر بعد ذلك، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته وهو قريب الجني قريب التناول وبذلك تكون الفاجعة فيه أشد والثمر هو الغاية والمحصلة النهائية للزرع[5].

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ) أي أحاط الله العذاب بثمره[6].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤٨-كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ١٣-باب استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث رقم٢٧٠٤، ٢٠٧٦/٤.

(٢) التفسير المنير ٢٥٤/١٥.

(٣) سورة الكهف، الآيتان (٤٢-٤٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم٨٩/١٥/٣.

(٥) تفسير الشعراوي٨٩١٠/١٣.

(٦) زاد المسير، ابن الجوزي١٠٢/٥.

(فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) جعل يقلب كفيه ندامة وحسرة يقول **(وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا)** وهكذا تنطلق من شفتي المغرورين دائماً كلمة الندامة وتتحرك ألسنتهم بألفاظ ليت وما شابهها.

قال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها[1].

أخبر الله تعالى أنه لما سلبه ما أنعم به عليه حقق ما أنذره به أخوه في الدنيا ندم على شركه حيث لا تنفعه الندامة[2].

﴿**وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا**﴾[3] أي ليس لديه أعوان ونصراء يدفعون عنه هذا الذي حل به ويمنعون عنه الخراب الذي حاق بجنته **(وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا)** أي ما كان ينبغي له أن ينتصر ولا يجوز له الانتصار[4].

فإذا حل البلاء فلا تستطيع فئة في الدنيا منعه أو رفعه أو الالتجاء إليها لإزالته، ولن يكون المبتلي الخاسر منتصراً، أي ممتنعاً عن إصابة العذاب له فلا ينصر ولا يتنصر لما أصابه العذاب[5].

وترى الباحثة أن السبب في التكبر قد يكون الغفلة عن الآثار الخطيرة والعواقب المهلكة المترتبة على التكبر بغير الحق، ذلك أن من غفل عن الآثار الضارة لعلة من العلل أو آفة من الآفات فإنه يصاب بها وتتمكن من نفسه ولا يشعر بها إلا بعد فوات الأوان.

---

(١) تفسير القرآن العظيم٣/١٥/٨٩.

(٢) زاد المسير في علم التفسير٥/١٠٢.

(٣) سورة الكهف، الآية (٤٣).

(٤) تفسير الشعراوي١٣/٩٨٢٠.

(٥) زاد المسير٥/١٠٢.